مفهوما فقه اللُّغة وعلم اللُّغة بين التأريخ والنقد(*)

د. بسمة عودة سلمان الرواشدة
أستاذ مساعد
جامعة البلقاء التطبيقية
كلية الأميرة رحمة الجامعية
الأردن

د. ياسمين سعد كليب الموسى
أستاذ مساعد
جامعة البلقاء التطبيقية
كلية الأميرة رحمة الجامعية
الأردن

الملخص:

وسم عدد كبير من اللغويين المحدثين مؤلفاتهم بفقه اللُّغة، وعلم اللُّغة، غير أن قراءة هذه المؤلفات، تبدي أن هنالك تداخلاً كبيراً بين فقه اللُّغة، وعلم اللُّغة حتى إن القارئ لا يستطيع أن يميز الفروع العلمية التي تصنف تحت فقه اللُّغة، والفروع التي تنضوي تحت علم اللُّغة.

ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث الذي يهدف إلى مناقشة مفهومي فقه اللُّغة، وعلم اللُّغة، وبيان انعكاسات اختلاف هذين المفهومين على الدراسات اللغوية، والفكرية، وعلاقتهما بالدين أولا، وبالتغير المكاني، والزماني ثانيا.

(*) **مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد (٧٩) العدد (٦) يوليه ٢٠١٩**

Abstract

Concepts of Philology & Linguistics between History & criticism

Dr. Basma Odeh Salman Al-Rawashdeh
Dr. Yasmeen Saad Kulaib Al-Mousa

Large number of the advanced Linguistics had launched their compositions through Philology & Linguistics. Since you read any of these books, you will easily observe the huge intervention and gaps between Philology & Linguistics; it has also reached to a point where even the readers of such books cannot distinguish between the scientific branches that listed under the Philology and others that listed under Linguistics.

Therefore, here came the idea and need to conduct this research that aims to discuss the concepts of Linguistic & Philology in addition to clarify the reflections of the difference between them over the linguistics & conceptual studies, and their relation to Religion first then to the change in place and time.

المقدمة

كرس هذا البحث جل همه من أجل تتبع نشوء مفهومي فقه اللغة وعلم اللغة عند القدماء، والمحدثين والوصول إلى وجهة علمية نقدية ؛ فقد وضح البحث مفهوم فقه اللُّغة عند ابن فارس بوصفه أول لغوي يسم كتاباً بعينه بفقه اللُّغة، ونعني كتاب "الصاحبي في فقه اللُّغة وسنن العربية في كلامها" ومفهومه عند الثعالبي الذي تبع ابن فارس بالتسمية عينها في كتابه "فقه اللُّغة وسر العربية"، وقد قمنا بالتتبع عينه لعلم اللُّغة كذلك.

وقد كشف البحث أنَّ فقه اللُّغة كمسمىً لكتاب بعينه قد خبت جذوته،

ولم يعد إلى الظهور إلا في العصر الحالي؛ إذ أصبح فقه اللُّغة، وقسيمه علم اللُّغة مُسمىً لكتب عديدة كثيرة؛ مما جعلنا نتوقف عند هذه الظاهرة؛ لنكشف اللثام عن الأسباب التي أدت إلى العودة بشكل واسع، والتغير الذي طرأ على مفهوم فقه اللُّغة وعلم اللُّغة من جهة، والعوامل العلمية، والعملية "الاستعمال" التي أدت إلى تغير فحواهما من جهة أخرى.

ولما أصبحت هذه العنونة ظاهرة شائعة تستدعي تحري الأسباب التي أدت إلى وجود خلط واضح للعيان بين مفهومي هذين العلمين حتى صارا عند بعض اللغويين علما واحدا، عملنا على تبيان العوامل المؤدية إلى وجود اللبس، والتداخل بين هذين العلمين التي من أهمها: تأثر لغويينا المحدثين بالمصطلحيْن الغربيين Linguistics , Philology اللذين لهما مدلولٌ خاص عند الغربيين.

مفهوما فقه اللُّغة وعلم اللُّغة بين التأريخ والنقد

وسم ابن فارس كتابه بـ" الصَّاحبي في فقه اللُّغة وسنن العربية في كلامها"[١]، فكان بذلك أول من استعمل مصطلح "فقه اللُّغة" عنواناً لمؤلفٍ بعينه، وتبعه في ذلك الثعالبي في كتابه "فقه اللُّغة وسر العربية"، ثم خبت جذوة هذا المصطلح، إلى أن ظهر مرة أخرى في هذا العصر، وأصبح استعمال هذا الاسم عنواناً لمؤلف بعينه ظاهرة منتشرة انتشاراً واسعاً، وأصبح هنالك مصطلح يماثل مصطلح "فقه اللُّغة" في الانتشار، وهو مصطلح "علم اللُّغة" وسنحاول أن نبين مفهوم فقه اللُّغة عند ابن فارس والثعالبي، ومفهوم هذا المصطلح عند المحدثين. كما سنبين مفهوم "علم اللُّغة" عند القدماء، والمحدثين تبييناً موجزا.

الفقه[٢] لغة: الفهم والفطنة والإدراك والعلم، والتفقه: التعلم، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه، وفضله على سائر أنواع العلم.

العلم لغة: نقيض الجهل، وهو الذي يدل على أثر بالشيء، يميز به عن غيره، واليقين، وتعلمتُ الشيء، إذا أخذتُ علمه. (الفراهيدي،٢،١٩٨٦/١٥٢-١٥٣).

عرفت الدراسات اللغوية العربية هذين المصطلحين كليهما – كما أشير، فكثير من الكتب اللغوية الحديثة حملت هذين المصطلحين عنواناً لها، مثل: علم اللُّغة وفقه اللُّغة لعلي عبد الواحد وافي، ودراسات في فقه اللُّغة لصبحي الصالح، وفي علم اللُّغة العام لعبد الصبور شاهين ، وفقه اللُّغة في الكتب العربية لعبده الراجحي ، والوجيز في فقه اللُّغة لمحمد الأنطاكي ، وعلم اللُّغة لحاتم الضامن .

إن المطالع لهذه الكتب لا يجد فرقاً كبيراً بينها، فموضوعاتها وقضاياها تكادُ تكونُ واحدة، لذلك، أصبح من العسير التفريق بين هذين المصطلحين في العصر الحالي؛ ويرجع هذا إلى تأثرهم بالمصطلحات اللغوية الغربية، فقد ترجم العرب كلمة "Philology" إلى "فقه اللُّغة"، و "Linguistics" إلى "علم اللُّغة"، مع أن مفهوم هذين المصطلحين عند الغرب مغايرٌ لمفهومهما عندنا؛ لأن "فقه اللُّغة" يدرس اللغات المكتوبة عندهم، أمثال اليونانية، واللاتينية ليعرفوا أهم مميزات هذه الأمم الاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، . "ففقه اللُّغة" يهدف إلى غاية كشف أنماط عيش الأمم القديمة عن طريق تراثها اللغوي (حسان،١٩٨٨،ص٢٦٣-٢٦٤)، أما "علم اللُّغة"، فيهتم بدراسة اللغات الحية لذاتها ومن أجل ذاتها، فهم يهتمون بالمنهج الوصفي، فعلم اللُّغة عندهم وسيلة لمعرفة تركيب اللغات، وبناء هيكلها العام، لذا، ابتعدوا عن المنهج المعياري الذي تتسم به الدراسات القديمة، فدافيد كريستال يقول: "... إن علم اللُّغة يقوم على الأقل بمهمتين:

الأولى: إنه يهتم بدراسة اللغات في ذاتها ومن أجل ذاتها، لكي يستطيع، أن يقدم وصفاً كاملاً ومحدداً لها.

الثانية: إنه يدرس هذه اللغات بوصفها وسيلة لغاية أبعد هي الحصول على معلومات عن طبيعة اللُّغة بشكل عام)."(كريستال،١٩٩٣،ص٧١)

ولذلك، فإن عالم اللُّغة: "... يحاولُ جاهداً أن يجعل معياره في الوصف اللغوي ذلك المعيار الذي ينبع من طبيعة اللُّغة وحدها، دون أن يحاول إقحام معايير منتزعة من مظاهر النشاط الإنساني الأخرى، مثل المنطق أو علم الجمال أو البلاغة، لكي يُفسر ويوضح أسس الاستعمال، كما يظل على وعي تام بالفرق بين المعلومات التاريخية، وغير التاريخية، ولا يسمح بالمعلومات غير ذات الصلة بالموضوع عن استعمالات الزمن الماضي أن تلون تقييمه لأي مرحلة من مراحل اللُّغة، كما يتحاشى أن يكون معياراً.. كذلك، يتحاشى إصدار أحكام انطباعية فجة عما يظنه يجري في اللُّغة، ولا يعتمد إلا على الاستعمال اللغوي النابع من أصحاب اللُّغة –Native Speakers– التي يقوم بفحصها..."(كريستال،١٩٩٣،٧٢–٧٣)

ونجد هذا المضمون أيضاً في كتاب ماريو باي "أسس علم اللُّغة" عندما فرق بين "علم اللُّغة" و "فقه اللُّغة" فقال: "...إن موضوع فقه اللُّغة "Philology" لا يختص بدراسة اللغات فقط، ولكن، يجمع على ذلك دراسات تشمل الثقافة، والتاريخ، والتقاليد، والنتاج الأدبي للغات موضوع الدراسة، أما علم اللُّغة (Linguistics)،فيركز على اللُّغة نفسها، لكن مع إشارات عابرة – أحياناً– إلى قيم ثقافية وتاريخية، ويُولي علم اللُّغة معظم اهتمامه للغة المتكلمة، وإن كان يوجه كذلك للغة المكتوبة شيئاً من الاهتمام" (ماريوباي، ١٩٧٣، ص٣٥).

ولهذا الخلط، فإن لغويي العربية ساووا بين موضوعاتهما، ومنهاجهما، فقالوا: إن أشهر موضوعات علم اللُّغة هي:

١) علم الأصوات العام (الفوناتيك Phonetics).

٢) علم الأصوات الوظيفي (الفونولوجيا Phonology).

٣) علم المفردات (المعاجم) (اليكسو Lexicograpl).

٤) علم الصرف (المورفولوجيا Morphology).

٥) علم الدلالة (السيمانتيك Semantics).

٦) علم النظم (السنتكس Syntax).

٧) علم الأساليب (الستيلستيك Stylistics).

وجعلوها هي نفسها أشهر موضوعات "فقه اللُّغة".)

أما أشهر مناهج "علم اللُّغة" التي قالوا إنها أشهر مناهج "فقه اللُّغة" أيضاً فهي: التاريخي، والوصفي، والمقارن، والتقابلي.

فهذه الموضوعات والمناهج تختص "بعلم اللُّغة" عند بعض الباحثين العرب، أمثال: حاتم الضامن في كتابه "علم اللُّغة" (الضامن،١٩٨٩،ص٣٠-٣١)، وإميل بديع يعقوب في كتابه "فقه اللُّغة العربية وخصائصها" (يعقوب،١٩٨٢،ص٣٥-٣٦) ، وعبد الصبور شاهين في كتابه "علم اللُّغة العام" (شاهين،١٩٨٠،ص٧). وهي عند محمد الأنطاكي تختص "بفقه اللُّغة" (الأنطاكي،١٩٦٩،ص١٣-٢١). ولذلك، لم يُفرق معظم المحدثين بين "فقه اللُّغة"، و"علم اللُّغة"، أمثال: علي وافي في كتابه "علم اللُّغة" (وافي،١٩٦٢،ص ٦-١٣) الذي قال: "أما بحوث علم اللُّغة نفسه، فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة، أشهرها اسم "فقه اللُّغة" وهذه التسمية هي خير ما يوضع لهذه البحوث، فإن فقه الشيء هو كل ما يتصل بفلسفته وفهمه،

والوقوف على ما يسير عليه من قوانين ...."[٣] ، وصبحي الصالح في "دراسات في فقه اللُّغة" الذي نص على أنه: "من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللُّغة وفقه اللُّغة، لأن جُل مباحثهما متداخلة لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب، قديماً وحديثاً وقد سمح هذا التداخل أحياناً بإطلاق كل من التسميتين على الأخرى..." (الصالح، ١٩٨٩، ص١٩-٢٠) ومحمد المبارك الذي قاسمهما الرأي في كتابه "فقه اللُّغة وخصائص العربية"، فقال: "إن علم اللُّغة بهذا المفهوم الذي بسطناه والذي آل إليه الأمر في تطور البحث اللغوي نرى أن نطلق عليه أحد الاسمين "علم اللُّغة" أو "فقه اللُّغة" وكلاهما يفيد المقصود وينطبق على المفهوم العلمي لباحث اللُّغة... وبإطلاقنا على هذا العلم أحد الاسمين نكون قد جارينا قدماءنا الذين استعملوهما كليهما، فأصابوا كل الإصابة في ذلك..."(المبارك،١٩٦٨،ص٣٩).

ولعل الخلط بين المصطلحين عائدٌ إلى أن الغربيين أنفسهم لم يستقروا على تعريف محددٍ لمصطلح Philology فقد "ذكر السنيور جويدي في محاضرته الأولى بالجامعة المصرية ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٦م، أن كلمة (Philology) تصعب ترجمتها بالعربية، وأن لها في اللغات الغربية معنى خاصاً لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب، فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو، ونقد نصوص الآثار الأدبية، ومنهم من يذهب إلى أنه ليس درس اللُّغة فقط، ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها..."(مبارك،١٩٧٥،ص٤٤-٤٥) .

ويؤكد ذلك قول يسبرسن إن "فقه اللُّغة مرادف عند الإنجليز للدراسة المقارنة بين اللغات، بينما يعني عند الآخرين دراسة حضارة معينة لأمة ما" (الراجحي،١٩٨٨،ص٢٦).

ومما يرتبط بهذا المضمار أن ترجمة "فلولوجي" إلى "فقه اللُّغة" ترجمة

خاطئة، لأن مضمون "فلولوجي" عند الغرب مغاير لمضمون "فقه اللُّغة" عند العرب، فمضمون مصطلح "فلولوجي" لم يكن مدار بحث عند اللغويين العرب القدماء، فقد نشأت الدراسات اللغوية عند العرب خدمة للنص القرآني، والحديث النبوي، وهم بهذا يدرسون نصوص لغة حية لا نصوص لغات ميتة كما فعل الغربيون، وفي هذا يقول ابن فارس: "أقول إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلقٍ من العلم بالقرآن، والسنة، والفتيا بسبب، حتى لا غنى لأحد منهم عنه، وذلك أن القرآن، نازلٌ بلغة العرب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله –جل وعز– وما في سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– من كل كلمة عربية أو نظم عجيب لم يجد من العلم باللُّغة بُداً.."(ابن فارس،١٩٦٣،ص٦٤).

فقه اللُّغة:

إذا أمعنا النظر في مضمون هذه الكلمة في التراث اللغوي العربي، فإننا نجدُ أن أول ظهور لها عنواناً لمؤلفٍ بعينه، كان في القرن الرابع الهجري، وهو كتاب "الصاحبي في فقه اللُّغة" لابن فارس،– كما أشير–.

وقد سماه الصاحبي لأنه أهداه إلى الصاحب بن عباد(ابن فارس،١٩٦٣،ص٢٩) .

حار اللغويون المحدثون في المعنى الذي كان يريده ابن فارس من هذه العنونة؛ لأنه لم يذكر السبب الذي جعله يُسمي كتابه هذا الاسم، وتبعه في هذه التسمية الثعالبي، غير أنه لم يعلل تسمية كتابه هذا الاسم أيضاً، بل قال: إن ممدوحه[٤] هو الذي اقترح عليه اسم "فقه اللُّغة" وقد أكمل الثعالبي اسمه بـ "سر العربية".

ولعل اختفاء هذا الاسم من مؤلفاتنا العربية إلى عصرنا الحالي يثير

الدهشة في الذهن ، فقد بينا كيف أصبح عنواناً لكثير من المؤلفات الحديثة. ولم نجدُ عالما من القدماء أعمل فكره في استنتاج مضمون هذه التسمية، أو ما السبب الذي جعل ابن فارس ينتقيها دون غيرها، إلا ما كان من ابن خلدون الذي عَرَضَ لمعنى هذه اللفظة، وقال: إنها دراسة دلالة الكلمة الخاصة التي كان لها معنىً عامٌ، وجعل مقياسه في التفريق بين دلالة الكلمة العامة والخاصة الوضع، والاستعمال؛ لأننا نضع الكلمة في معنى عام، ثم نجدُ أن الاستعمال قد حور هذه الكلمة وغيرها عن معناها الأصيل الذي وضعت له بالأصل، فيقول: "... ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم، ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظاً أخرى خاصة بها، فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال، واحتيج إلى فقه في اللُّغة عزيز المأخذ، كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب، ومن الإنسان بالأزهر، ومن الغنم بالأملح، حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحنا، وخروجاً عن لسان العرب، واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي، وأفرده في كتاب له سمَّاه "فقه اللُّغة" وهو آكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه: فليس معرفة الوضع الأول بكافٍ في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب" (ابن خلدون،١٩٦٢،ص١٢٦١) .

واعتماداً على هذا التعريف، ذهبَ بعضُ المحدثين إلى القول إن "فقه اللُّغة"، كان معروفاً قبل الصاحبي "بالمقاييس الدلالية" أمثال: كتب أبي حنيفة في الأنواء، والنبات، وكتب الأصمعي في الدارات، والسلاح، والإبل، والخيل، والشاء، وأسماء الوحوش، والنبات، والشجر، والنخيل، والكرم. وكتب ابن قتيبة في الرحل والمنزل، واللبأ. وكتب ابن دريد في صفات السرج واللجام، والسحاب والغيم. (أيوب،٣،١٩٦٦-٢٢) ولذلك، عدوا أفضل كتابٍ في "فقه اللُّغة" هو كتاب الثعالبي؛ لأنه قام على تقسيم الكلمات وفق معناها الدلالي، أو ما يُعرف

"بالحقل الدلالي".

يبدو أن الدارسين قد أغفلوا معنى "فقه اللُّغة" عند ابن فارس، لأنه لم يذكر السبب الذي دعاه لتسمية كتابه بهذا الاسم – كما بينا–، إلا أننا نميل إلى القول:

إن ابن فارس كان مدركاً لدلالة "فقه اللُّغة" حين سمى كتابه هذا الاسم، فالفقه عنده هو إدراك الشيء، والعلم به.(ابن فارس،١٩٩١ ،٤٤٢/٤ وابن فارس،١٩٨٣،ص٢٣)

والإدراك أرفع مرتبة من العلم، والعلم يقتضي التعلم، أما الإدراك "الفقه" فيقتضي استخلاص قواعد عامة لموضوع ما كنت قد تعلمته سابقاً، و"فقه اللُّغة" عند ابن فارس هو الأسس الذهنية التي تقوم عليها اللُّغة، واستعمالاتها المختلفة، وهي مرحلة تأتي بعد مرحلة التعلم، فحينما قسم ابن فارس علوم العربية إلى فرع وهو: الذي يبدأ به عند التعلم، وأصل وهو: دراسة اللُّغة في جميع جوانبها من نشوءٍ، واستعمال، وافتنان،كان غرضه من ذلك التأكيد على أن الأصل عنده هو "الفقه"؛ ولا سيما أن دلالة الفقه تعني الاستنتاج والاستنباط، وذلك بين في قول الرسول – صلى الله عليه وسلم–: "اللهم علمه الدين، وفقهه في التأويل"(الجفال،١٩٨٢، ٦–٧) ، في دعائه لابن عباس – رضي الله عنه–.

ودراية ابن فارس بدلالة الكلمة واضحة جداً، ولا سيما أنه من الفقهاء واللغويين: "... فأقول: إن لعلم العرب أصلاً وفرعاً: أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات، كقولنا: رجل، وفرس، وطويل، وقصير هذا هو الذي يُبدأ به عند التعلم. وأما الأصل، فالقول على موضوع اللُّغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب في مخاطباتها، وما لها من الافتنان تحقيقاً ومجازاً" (ابن فارس، ١٩٦٣،

ص٢٩).

ومما دلَّ على أن "فقه اللُّغة" يساوي "الأصل" عند ابن فارس، أنه بنى كتابه على الموضوعات التي صنفها تحت الأصل:

فموضوع اللُّغة وأوليتها ومنشؤها كتب فيها أبوباً متعددة منها:

لغة العرب: أتوقيفٌ أم اصطلاح ، والخط العربي وأول من كتب به(ابن فارس،١٩٦٣،٣١-٣٤) ، ولغة العرب أفضل اللغات وأوسعها ، ولغة العرب: هل يجوز أن يُحاط بها، ومأخذ اللغات .

وكتب عن موضوع رسوم العرب في مخاطباتها أبواباً كثيرة، منها: اختلاف لغات العرب ، وأفصح العرب ، واللغات المذمومة ، واللُّغة التي نزل بها القرآن، وأنه ليس فيه شيء بغير العربية ، والاحتجاج بالعربية ، وهل للغة العرب قياس؟ وهل يُشتق بعض الكلام من بعض؟ .

أما موضوع ما لها من الافتنان تحقيقاً ومجازاً، فقد كتب فيه أيضاً أبواباً كثيرة، أهمها: باب معاني الكلام ومن أشهر موضوعات هذا الباب: الخبر والاستخبار، والأمر والنهي، والدعاء والطلب، وباب الإغراء . والحث وأشهر موضوعاته التمني، والتعجب، والخطاب يأتي بلفظ المذكر أو لجماعة الذكران (ابن فارس،١٩٦٣،ص ٣١-١٩٤).

وقد يقول البعض: إذا كان الفقه عند ابن فارس هو الإدراك، فلماذا لم يُسم كتابه "إدراك اللُّغة"؟ فنقول: إنه قد يريد أن يُضفي على لغة العرب ومضة من القداسة، ولذلك، أطلق عليه "فقه اللُّغة"؛ لأن الفقه من أهم أصول التشريع في الإسلام.

ونعتقد أن الثعالبي حينما سمى كتابه "فقه اللُّغة"، فإنه كان ذا دراية ومعرفة بكتاب ابن فارس "الصاحبي"، ولم يكن مجرد اسم اقترحه ممدوحه، ومما يؤكد ذلك أن ما سمَّاه "سر العربية"، هو نفسه الذي وضعه ابن فارس

تحت "سنن العرب في حقائق الكلام والمجاز"؛ إذ نقل الثعالبي معظم القسم الثاني من كتاب الصاحبي "سنن العرب في كلامها" وسمَّاه "بسر العربية"، ومما يقوي ذلك، ويوطده مماثلة أبواب كتابه مماثلة تامة لأبواب الصاحبي، وأمثال ذلك كثيرة منها: باب القلب: الصاحبي ص٢٠٢، الثعالبي ص٣٧١، وباب الإبدال الصاحبي ص٢٠٣، الثعالبي ص٣٧٠، وباب الفرق بين ضدين بحرف أو حركة، الصاحبي ص٢٢٥، الثعالبي ص٣٧٩ وباب النحت، الصاحبي ص٢٧١، والثعالبي ص٣٧٨، وباب الإشباع والتأكيد الصاحبي ص٢٧١، الثعالبي ص٣٧٩، وباب الإتباع الصاحبي ص٢٧٠، الثعالبي ص٣٧٢.

وقد كان يأخذ أحياناً قسماً من أقسام باب عند ابن فارس ويجعله باباً بعينه في كتابه أمثال: فصل في تسمية المتضادين باسم واحد، الثعالبي ص٣٧١، وهو عند ابن فارس قسم من باب الأسماء كيف تقع على المسميات، الصاحبي ص٩٦-٩٨. وفصل في التقارب اللفظي، واختلاف المعنيين عند الثعالبي ص٣٦٨، وهو قسم من باب أجناس الكلام في الاتفاق والافتراق عند ابن فارس ص٢٠١-٢٠٢.

ومما يتصل بسابق قولنا: إن الثعالبي كان مطلعاً على المعجمات الدلالية التي ألفها القدماء، ومنها استقى فكرة القسم الأول من كتابه، واستقى اسم كتابه، وقسمه الثاني من كتاب ابن فارس.

والحق إن مفهوم الثعالبي لفقه اللُّغة قد شاع لدى اللغويين؛ إذ أصبح فقه اللُّغة يعني دراسة دلالة الكلمة، وتطورها نتيجة الاستعمال الذي أدى إلى تغيير معناها، أو موقعها الذي وضعت له بالأصل، أو دراسة الكلمات التي يمكن وضعها تحت عنوان معين، أو ما يسمى حالياً "بالحقل الدلالي"، ومن ذلك: باب الأولاد (الثعالبي، ١٩٧٢، ص١١٣)، وفي تفصيل الغنى وترتيبه

(الثعالبي، ١٩٧٢، ص٨٤) ، وباب الكرم والجود (الثعالبي، ١٩٧٢، ص١١٣)، وفصل في الشجاعة وتفصيل أحوال الشجاعة (الثعالبي، ١٩٧٢، ص٨٦) ، وهذا الفهم لفقه اللُّغة هو المتخير عند ابن خلدون (ابن خلدون، ١٩٦٢، ص١٢٦١).

أما مفهوم فقه اللُّغة عند ابن فارس، فلم نجد أي باحث قد ارتآه، – وإن كان مفهوم ابن فارس لفقه اللُّغة، أعمق من مفهوم الثعالبي له–، ولعل السيوطي هو العالم الوحيد الذي أخذ بمفهوم ابن فارس "لفقه اللُّغة" في كتابه المزهر مع أنه سمَّاه "المزهر في علوم اللُّغة" (السيوطي،١٣٥٩هـ،ص؟؟)، ولم يسمه المزهر في فقه اللُّغة.

ولا يفوتنا الإشارة إلى أن ابن فارس كان مدركاً لمفهوم فقه اللُّغة عند الثعالبي؛ ويتجلى هذا الفهم في معجمه المعنوي، أو الدلالي "متخير الألفاظ" ، ومن أبوابه: باب الغنى (ابن فارس،١٩٧٠،ص١٤٥) ، وباب الجبن(ابن فارس، ١٩٧٠، ص١٦٨)، وباب الشجاعة (ابن فارس،١٩٧٠،ص١٤٧–١٤٨). ومعجمه المعنوي الآخر "مقالة في أسماء أعضاء الإنسان" (ابن فارس،١٩٦٧،ص٢٣٥–٢٤٥).

علم اللُّغة:

قلنا: إن مصطلح "علم اللُّغة" شاع في عصرنا الحالي شيوعا كبيرا؛ إذ اصبح عنوانا لمؤلفات عديدة، وقد بينا التداخل الذي وقع بينه وبين "فقه اللُّغة"، سواء أكان ذلك في الموضوعات، أم في مناهج الدراسة.

واللافت للنظر أننا لم نجد أي لغوي قديم جعل من مصطلح "علم اللُّغة"، عنوانا لمؤلف بعينه، إلا ما كان من السيوطي (ت ٩١١هـ) في مزهره؛ ونعني "المزهر في علوم اللُّغة"، وإن كانت علوم اللُّغة عنده تماثل علوم فقه اللُّغة، عند ابن فارس، كما أشرنا.

وقد كان "علم اللُّغة"، هو القسيم لعلم النحو في السابق؛ فقد كانوا يسمون من كان له معرفة بكلام العرب، وشعرها، ونثرها، وخطبها، ومفرداتها، عالماً باللُّغة، أو لغوياً، ولذلك قالوا إن أشهر اللغويين قديماً أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، وابن دريد، وابن فارس.

قال عبد اللطيف البغدادي في "شرح الخطب النباتية" عندما فرق بين اللغوي والنحوي :"اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه، أما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه ..." (السيوطي،١٣٥٩هـ،٥٩/١). ولعل بداية هذا العلم كانت بتأليف رسائل لغوية صغيرة ترتب المفردات بطريقة منظمة أمثال: رسالة في أسماء البئر، والإبل، وخلق الإنسان وغيرها (خليل،١٩٩٣،ص٢٨).

وقد تطور هذا العلم نتيجة ظهور مؤلفات كثيرة، وجديدة أمثال: العين للخليل بن أحمد، والتهذيب للأزهري، والجمهرة لابن دريد، والمجمل والمقاييس لابن فارس، والصحاح للجوهري؛ إذ أصبح "علم اللُّغة" يعني: علم جمع المفردات، أو المعجمات، وقد كان هذا المعنى هو المتخير عند ابن خلدون الذي عد أن "علم اللُّغة"، هو علم المعجمات التي تحفظ مفردات اللُّغة من الاندثار، والانصهار، والضياع، والتغيير؛ بسبب اختلاط العرب مع الأمم الأخرى، فيقول: "هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية، وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلنا، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم، ومخالطتهم، حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم ميلاً مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن، والحديث، فشمر كثيرٌ من أئمة

اللسان لذلك، وألفوا الدواوين، وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي،..."(ابن خلدون،١٩٦٢،٤/١٢٥٨)

أما في وقتنا الحاضر، فقد أصبح "علم اللُّغة" يعني الدراسة العلمية للغة دراسةً وصفية تحليلية، دون النظر لبعدها الزماني، أو المكاني، وإنما تُدرس بوصفها ظاهرة علمية حالها حال أي ظاهرة فيزيائية طبيعية – وهو بهذا يماثل المفهوم الغربي لعلم اللُّغة أو "اللنجويستك" – ولذلك فإن اتصاله في – وقتنا الحاضر– بعلوم التاريخ، والفلسفة اتصال قليل، وإن أكثر العلوم التي يتصل بها هي علم النفس، وعلم الاجتماع، "فالنظرية الرمزية" يدرسها علم اللُّغة وعلم النفس، وكذلك يدرس علم اللُّغة بالتعاون مع علم الاجتماع "نظرية الظرف الاجتماعي" (أيوب،١٩٦٦،ص٨).

وإذا قارنا بين منهج دراسة اللُّغة عند الأقدمين، ومنهج دراستها عند المحدثين فإننا نلحظ عدة فروق منها:

١- إن علماء اللُّغة الأقدمين كانوا لا يأخذون الألفاظ، أو الأشعار من القبائل التي لها مجاورة مع العجم، بل إنهم لا يستندون إلا على كلام العرب الذي قيل، في عصر الاحتجاج، –الذي حددوه على الأغلب سنة ٢٠٠هـ–.

أما المحدثون، فإنهم يدرسون الظاهرة اللغوية سواء أكانت هذه الظاهرة موجودة من ألف عام أم وجدت الآن، وسواء أشاعت هذه الظاهرة اللغوية في المدينة أم في البادية، فإنهم لا يأبهون بالبعدين الزماني، والمكاني اللذين كان يأبه بهما القدماء.

٢- لم يهتم العرب القدماء بلهجات العوام، أما اليوم فقد أصحبت مصدراً هاما للدراسات اللغوية.

٣- كانت الدراسات اللغوية قديماً مقتصرة على اللُّغة العربية فقط، أما في العصر الحالي، فقد توسعت هذه الدراسات، وأصبحت تشمل لغات كثيرة.

فكتاب "فقه اللُّغة" لعلي وافي يدرس اللُّغة العربية ومدى مماثلتها للغات السامية (أيوب،١٩٦٦،ص٦) ، وتناول الموضوع نفسه صبحي الصالح في كتابه "دراسات في فقه العربية" (أيوب،١٩٦٦،ص٤-١٥٧)، وجورجي زيدان في كتابه "الفلسفة اللغوية" (زيدان،١٩٨٢،ص١١-١٥٣) ، وإبراهيم السامرائي في كتابه "فقه اللُّغة المقارن" (السامرائي،١٩٦٨،ص٥١-نهاية الكتاب) .

يعد اللغويان عبد الواحد وافي وحسن ظاظا من أوائل من تطرقا إلى فقه اللغة بمفهومه الحديث في العربية المعاصرة، وقد أجمعا على أن فقه اللغة (خلافا لعلم اللغة) يختص بالعربية وحدها. أما صبحي الصالح فقد عرفه بأنه: " منهج للبحث استقرائي وصفي يُعرف به موطن اللغة الأول وفصيلتها وعلاقتها باللغات المجاورة أو البعيدة، الشقيقة أو الأجنبية، وخصائص أصواتها وأبنية مفرداتها وتراكيبها، وعناصر لهجاتها، وتطور دلالتها، ومدى نمائها قراءة وكتابة "

الهوامش:

(١) حُقق هذا الكتاب غير مرة، إذ حققه السيد أحمد صقر وعمر فاروق الطباع، والمكتبة السلفية، ومصطفى الشويمي، وهو الذي اعتمدناه في هذه الدراسة، وقد سمَّاه بالصاحبي، نسبة إلى الصاحب بن عباد.

(٢) انظر الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، ط٢، دار مكتبة الهلال، ودار الشؤون الثقافية والعامة ١٩٨٦، ج٣ ص٣٧٠. وابن دريد، الجمهرة، طبعة جديدة بالأوفست، ط١، مكتبة المثنى، بغداد، ١٣٤٥هـ، ج٣ ص١٥٧. الأزهري تهذيب اللُّغة، تحقيق: عبد الله درويش ومحمد علي النجار الدار المصرية للتأليف والترجمة مصر ج٥ ص٤٠٤-٤٠٥. وابن فارس، المقاييس، تحقيق: عبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م، ج٤ ص٤٤٢. وابن سيده، المحكم، تحقيق: مصطفى السقا، وحسين نصار، ط١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ١٩٥٨م، ج٤ ص٩٢. وعبد الفتاح الصعيدي، وحسين يوسف موسى، الإفصاح في فقه اللُّغة، ط٢، دار الفكر العربي، بيروت، ج١ ص١٤٧.

(٣) وقال كذلك" وقد كنا نود أن نسمي كتابنا هذا باسم(فقه اللغة)لولا أن هذا الاسم قد خصص مدلوله في الاستعمال المألوف،فأصبح لا يفهم منه إلا البحوث المتعلقة بفقه اللغة العربية وحدها"

(٤) هو ابن الفضل عبد الله بن أحمد المكيالي، (ت ٤٣٦هـ).

المصادر والمراجع

١- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، **تهذيب اللُّغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، وأكمل تحقيقه: عبد الله درويش، الدار المصرية للتأليف والترجمة. مصر، ١٩٦٤م.

٢- الأنطاكي، محمد، **الوجيز في فقه اللُّغة**، ط٣، المطبعة الحديثة،١٩٦٩.

٣- أيوب، عبد الرحمن ،**محاضرات في اللُّغة**، مطبعة المعارف ساعدت جامعة بغداد في نشره، بغداد، ١٩٦٦م.

٤- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري، **فقه اللُّغة وسر العربية**، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، الطبعة الأخيرة، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ١٩٧٢م.

٥- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي(ت)، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار الشؤون الثقافية، العامة، بغداد ١٩٩٠م.

٦- حسان، تمام، **الأصول دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب**، نشر مشترك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ودار الشؤون الثقافية العامة، العراق ١٩٨٨م.

٧- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **المقدمة**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ط١،ج١، لجنة البيان العربي، مصر، ١٩٦٢م.

٨- خليل، حلمي، **مقدمة لدراسة فقه اللُّغة**، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٣م.

٩- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري، **الجمهرة**، طبعة جديدة بالأوفست، ط١، مكتبة المثنى، بغداد، ١٣٤٥هـ.

١٠- الراجحي، عبده ،**فقه اللُّغة في الكتب العربية**، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية، ١٩٨٨م.

١١- زيدان، جورجي، **الفلسفة اللغوية**، ط١، دار الجيل للنشر والتوزيع بيروت–لبنان، ١٩٨٢م.

١٢- السامرائي ،إبراهيم ، **فقه اللُّغة المقارن**، دار العلم للملايين، بيروت–لبنان، ١٩٦٨م.

١٣- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي، **المحكم**، تحقيق: مصطفى السقا، وحسين نصار، ط١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٥٨م.

١٤- السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، **الاقتراح في علم أصول النحو**، صححه: عبد الرحمن بن يحيى اليماني، وسعيد بن عبد الله العمودي، وأحمد بن محمد اليمني، ط٢، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٩هـ.

١٥- ، **المزهر في علوم اللُّغة**، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت–لبنان.

١٦- شاهين، عبد الصبور، **علم اللُّغة العام**، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ١٩٨٠م.

١٧- الصالح، صبحي، **دراسات في فقه اللُّغة**، ط١٢، دار العلم للملايين بيروت–لبنان، ١٩٨٩م.

١٨- الصعيدي، عبد الفتاح، وحسين يوسف موسى، **الإفصاح في فقه اللُّغة**، ط٢، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة،١٩٢٩م.

١٩- الضامن، حاتم، **علم اللُّغة**، جامعة بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مطبعة التعليم العالي بالموصل،١٩٨٩م.

٢٠- الفارابي، أبو النصر محمد بن محمد بن طرخان، **الحروف**، تحقيق: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت–لبنان، ١٩٦٩م.

٢١- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي القزويني، **حلية الفقهاء**، تحقيق: عبد المحسن التركي، ط١، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت–لبنان، ١٩٨٣م.

٢٢- ـــــــــــ ، **الصاحبي في فقه اللُّغة وسنن العربية في كلامها**، تحقيق: مصطفى الشويمي مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت–لبنان، ١٩٦٣م.

٢٣- ـــــــــــ، **متخير الألفاظ**، تحقيق: هلال ناجي ط١، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٧٠.

٢٤- ـــــــــــ، **مقالة في أسماء أعضاء الإنسان**، تحقيق: فيصل دبدوب، مجلة المجمع العلمي بدمشق، مجلد ٤٢، ج٢، ١٩٦٧م.

٢٥- ـــــــــــ، **المقاييس**، تحقيق: عبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت–لبنان، ١٩٩١م.

٢٦- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، **العين**، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، ط٢، دار مكتبة الهلال، ودار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦م.

٢٧- كريستال، دافيد، **التعريف بعلم اللُّغة**، ترجمة وتعليق: حلمي خليل، ط٢، دار الثقافة للنشر، ودار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٣م.

٢٨- ماريوباي، **أسس علم اللُّغة**، ترجمة: أحمد مختار عمر، منشورات جامعة طرابلس، كلية التربية، طرابلس، ١٩٧٣م.

٢٩- مبارك، زكي، **النثر الفني في القرن الرابع**، دار الجيل، بيروت–لبنان، ١٩٧٥م.

٣٠- المبارك، محمد، **فقه اللُّغة وخصائص العربية**، ط٣، دار الفكر، بيروت–لبنان، ١٩٦٨

٣١- وافي، علي عبد الواحد ، **علم اللُّغة**، ط٥، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٦٢م.

٣٢- ـــــــــــ، **فقه اللُّغة**، ط٢، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٤٤م.

٣٣- يعقوب، إميل بديع، **فقه اللُّغة العربية وخصائصها**، ط١، دار العلم للملايين بيروت– لبنان، ١٩٨٢م.